دوائر الرفض

قصة بقلم ابراهيم زعرور

(عليّ أن اضع حدا لهذا) .. ثم أكد قوله مجددا بنفس اللهجة الغاضبة . ومزق الاوراق ثم كوّرها بغضب وقذفها دونما مراعاة للمكان .. ثم دفع مجموعات الكتب والمجلات المكدسة بفوضى تامة فسقطت تلك الرسالة التي كان قد تسلمها ظهر اليوم ، والتي اثارت فيه هياجا مجنونا على نفسه وعلى الاشياء جميعا .

ولم تكن تلك الرسالة تختلف في شيء عن عشرات الرسائل التي اعتاد ان يتلقاها من والده خلال سنوات دراسته الجامعية . فهي ، كغيرها ، تعيد الى ذاكرته ، باسلوب ساذج ولكنه جارح ، حالة والده المادية المطردة السوء كلما تقدم يوما في دراسته . وكذلك حالة اخوته واخواته الذين حرموا من ابسط ما تشتهيه انفسهم في سبيل توفير نفقات دراسته . بل انها ارق لهجة من غيرها عندما تتناول في نهايتها امر تحذيره من مغبة الاسراف والاهمال .

ولو استثنينا سطرين منها يذكرانه بنجاح ابن المختار وابن تاجر الحبوب في قريتهم ، اولئك الذين رفعوا رؤوس ذويهم عاليا عندما وفقوا للتعاقد مع احدى دول البترول ، لما وجدنا في الرسالة ما يستحق الذكر .

ولكن مروان احس بصدره يضيق الى حد الاختناق . فقد شعر بانها دليل الادانة لجميع الجرائم التي حلت به ـ شخصيا قبل ان تحل بقومه . وقد بدت له الحروف عيونا تتحداه بعهر . مما جعله يبصق في وجهها مدمدما بحقد (لم يبق ما العنه) .

ومنذ المساء والمطارق تهوي في رأسه دقا وتمزيقا .. وقد حاول ، لساعتين متتاليتين كتابة شيء ما ، اي شيء ولكن عبثا . كان قد تعود ان يلوذ بالكتابة كلما ضاق صدره . ولكن الكلمات استعصت عليه هذه المرة . وكانت جامحة مهتاجة لم يستطع حيالها شيئا . كانت الاشياء تتدفق على اعصابه حمما مجنونة لا يستطيع التقاط شيء منها ولو حرفا واحدا يبدأ به .

عصر القلم يستقطره الكلمات ، ولكنه كان اشد جفافا من حلقه ، فقد استهلك في ساعتين ما يزيد عن عشر سجائر . اقتبس جملة مشوهة المدلول ، سجلها على هامش احد الكتب المبعثرة بالانجليزية (انني لا اعرف ماذا اريد .. ولكنني اعرف بالضبط كل ما لا اريده) ثم وقع في الذيل « سخيف » .

عندما عاد الى غرفته عصر اليوم احس بحلقه يزدحم ببكاء متحجر. لقد انتشرت عدوى الرسالة الملعونة لاشياء ـ الغرفة جميعا ، السرير ، الدولاب ، الكتب المبعثرة كلها تتحداه وتصر على اسنانها في وجهه . خرج الى الشارع لغير ما هدف ووجد ان قدميه تجران حطامه الى المقهى الذي تعود ان يذهب اليه في بعض الايام . دلف الباب واحتوى المكان بنظرة واحدة ثم دار على عقبيه . مرّ بالحديقة العامة مسرعا وعاد الى حيث مجمع سيارات الاجرة . همّ بالصعود الى الباص رقم ٢٧ دون ان يعرف وجهته ولكنه عدل عن رأيه في أخر لحظة عندما تذكر المكتبة العامة القائمة في نهاية الشارع على بعد محطتين . وقف على الرصيف منتظرا ان يخلو الشارع من السيارات العابرة ثم عبر بهدوء تام على غير المألوف في هذا الازدحام .

كانت تراوده رغبة مجنونة في ان يقف في منتصف الشارع صائحا (ارفعوا رؤوسكم) . وعندما لمح امرأة تنتظر عند منعطف جانبي همّ ان يسألها (هل انت مومس يا سيدتي ؟) ولثانية واحدة ، اجتاح وجدانه احساس طاغ بالذنب . فتوقف فجأة واتجه نحو الغرب واشار مخاطبا الشمس مباشرة وبجدية حازمة (وحق نورك الغامر .. انني مجنون) . ثم دار حول نفسه وواصل سيره نحو المكتبة .

كانت الاشياء تنزلق متلاحقة عبر خياله . وبدت له محتويات المدينة متساوية الابعاد . الوجوه ، العمارات ، الارصفة احذية العابرين ، اعلانات المحال التجارية كل منها يتخذ لنفسه شكلا حادا يسقط في دماغه .

سأل نفسه اكثر من مرة (هل انا بصحة جيدة ؟) ولكنه لم يجب ابدا . فهو لم يكن يدري على وجه التحقيق ان كان راغبا في الجواب.. لانه كان يلتقط صورة جديدة قبل ان يتحول الى الجواب (هل انا بصحة جيدة ؟) .

عبرت سيارة صبغت مؤخرتها بلون مغاير . فنفض يده شاهرا سبابته يتحدى اشياء ولدت للتوّ في مخيلته : (للحقيقة وجه واحد .. وجه واحد فقط .. اما الوجه الاخر فتوجدونه وهما تختبئون وراءه ..) ارتخت يده وهو يبتسم (الوجه الاخر من مبتكرات ماكس فاكتور) . تمنى لو يحصل على كوب من الحليب (منذ متى لم اتذوق طعم الحليب؟ ربما منذ سنتين ... ولكن ما الذي اقحمه الى شهوتي الان ؟؟..)

(مجنون .. مجنون اقسم بجميع الاشياء انني مجنون .)

تطلع الى السماء هامسا (لن اريق ماء وجهي في طلب مرفوض مسبقا . هه . ومنذ متى كان لذلك اية قيمة ؟. هنيئا للمؤمنين قناعاتهم

(طوبى لمن لم يتعثر بظله) .

قفزت الى ذهنه صورة لينين بلحيته المدببة . حاول ان يتذكر اين رأى الصورة لاخر مرة .. وعندما بدت المكتبة لعينيه الجائلتين برقت صورة غلاف كتاب لم يره الا منذ فترة وجيزة . فسأل نفسه (متى يطلع الفجر يا رفيق) ؟ ولكنه اجاب بتأن عميق التأثير (لقد نفذ الفجر يا رفيق !!. انهم يريدونني ان ارفع رؤوسهم عاليا .. ارفعوا رؤوسكم. ارفعوا ايديكم .. القوا اسلحتكم .. من دخل قبوا مظلما فهو آمن .. من دخل في .. في جهنم فهو آمن . عودوا لارحام امهاتكم . ثم اخرجوا .. ثم عودوا . ثم اخرجوا .. وستجدوننا ما نزال بانتظاركم في الشمال !) وجد نفسه امام المكتبة . صفعه نفس العنوان الضخم في اعلى الصحيفة « رجال المقاومة يتعرضون لاعنف الغارات ـ الوحشية منذ ثلاثة ايام » .. نفس العنوان الذي كان له وقع الاصطدام المروع في الصباح الباكر .. نفس العنوان الذي جعله بلا طعام طيلة اليوم .

سأل نفسه بهدوء (ما هي الجريمة ؟ ما الفرق بين القاتل والباكي على القتيل من الناحية الموضوعية ؟ هل انا قاتل حقا ؟) وجاء جوابه حاسما هذه المرة (نعم يا سيدي .. نعم يا سيدي ، قاتل .) (ارفعوا رؤوسكم . ارفعوا ايديكم والقوا السلاح) .

احس بالدوار ، وانتاب ساقيه اعياء شديد فعاد ادراجه . ما انفك يهمس طوال الطريق (ما بيدي طالما انتم على بعد الف ميل ؟. نم ايها الضمير العزيز ولسوف اجعل لك عشا من الطين) . كان والده قد رهن ارضه منذ سنة من اجل استكمال تعليمه . وعندما تذكر هذا هتف مرتعبا (يا الهي .. لقد دمرني العلم) ولكنه سارع الى الاعتذار لفكرة رفسته في منتصف جمجمته (عفوا ايها الرفيق .. اعنى العلم في بلادي) . ثم اخذ يقلد مذيعي الاخبار (الزعيم سين ياكل البندوره بدون ملح .. قرار صادر بمنع استيراد الكتب لتشجيع الصناعة المحلية ..) وعندما داهمته لافتة كتب عليها « اتجه الى اليسار » اكمل ضاحكا (وستجد كافة التسهيلات الممكنه عند اعتاب الجحيم .)

تحسس جيوبه فكانت اكثر خواء من معدته . فتقدم بخطى ثابتة نحو دكان (عم علي) .

ـ اهلا دكتور مروان .

ـ اعطني علبة سجائر من فضلك .

فتشاغل الرجل ماضغا بضع كلمات شبيهة بالاعتذار اتضح منها « ولكن الحساب يتزايد يوما بعد يوم »

فرفع مروان يديه باسطا كفيه وقال بلهجة خطابية هازلة :

ـ اليك هذا النبأ ... والدي زوّج شقيقتي .. وارسل لي مهرها كاملا ... وهذا هو الشيك في جيبي .

ثم اخذ يربت على جيبه الخاوي بحركة تأكيدية هادئة (فما رايك)؟

مط الرجل شفتيه استهجانا ، مؤكدا سلبية حياده وناوله علبة السجائر ... فتناولها قائلا :

ـ سادفع لك فيما بعد ... فيما بعد ..

وابتعد وهو يردد .. فيما بعد .. فيما بعد ..

* * *

اغلق قلمه بهدوء وقال بصوت واضح مفرغ من اي انفعال (يتعين عليّ ان اضع حدا لهذا ولو بطريقة كاذبة) تطلع الى ساعته .. ثم حك رأسه وتذكر انه جائع ... ثم عاود التطلع الى الساعة فكانت العاشرة مساء . فغادر الحجرة مسرعا .. لم يعد درجات السلم هذه المرة فقد كان في عجلة من امره .

كان في طريقه الى مكتب الهلال الاحمر الفلسطيني .

ـ اية خدمة ؟؟

ـ اريد ان اتبرع بدمي .

ـ تفضل بالجلوس .

ـ شكرا

ـ ولكن الوقت .. اعني ان الساعة العاشرة والنصف مساء ... ثم ليس لدينا الادوات اللازمة .. وفي الصباح يمكن ...

ـ شكرا ... ساعود في الصباح .

ثم شد على يد الموظف بقوة لم يدرك انها غير عادية وخرج مسرعا .

عند العتبات الخارجية دغدغه نسيم هادىء اسكن صوره . فأسند رأسه على يده فوق حافة الباب الخارجي وكانت قطرات من الدموع تولد في مآقيه . وكان الموظف قد خرج لتوه .

ـ هل تشكو شيئا يا رفيق ؟.

ـ لا شيء ... لا شيء البته .

ابراهيم زعرور

دار الآداب
تقدم
محمود درويش

أُحِبُّكِ .. أو لا أُحِبُّكِ

في « احبك او لا احبك » هرب محمود درويش من دائرته الشعرية الاولى ، وهاجر القديم ليضيف اليه جرحه بعدا ثالثا ، هو بعد « الحرية » .

« احبك او لا احبك » هو الولادة الثانية لمحمود درويش ، وهو الوجه الجميل الآخر لشاعر يرفض ان يتعوّد على وجهه ..

صدر حديثا — ثمن النسخة ٣٥٠ قرشا لبنانيا